ملف خاص

أنور الجندي وجهده الموسوعي

يعد المجال الموسوعي أساساً مهماً من أسس البناء الحضاري والثقافي للأمم، وقد برع الغرب في إصدار الموسوعات العامة والخاصة، لتيسير المعرفة أمام طالبيها سواء كانوا من جموع الناس أم من العلماء المتخصصين، والموسوعة العامة تقدم المعلومة الموجزة لطالبها بسرعة ودون عناء، لأنها تأتي في إطار مبسط وسهل، وكذلك الموسوعة الخاصة تقدم المعلومة الدقيقة للمتخصص في تركيز وإيجاز مع ذكر المصادر والمراجع التي يمكنه الاستعانة بها إذا أراد مزيداً من التفصيل والمعرفة.

وقد عرفت حضارتنا الإسلامية أهمية الأعمال الموسوعية، وسبقت أمم الأرض حين قدمت العديد من هذه الأعمال بوساطة أدباء أفذاذ وكتاب متميزين، وقد تعددت وتطورت بمرور الأيام، ووصلت بعض الموسوعات إلى ما يقرب من العشرين مجلداً، ولعل «صبح الأعشى» للقلقشندي مثلاً و«الأغاني» للأصبهاني، من أبرز النماذج التي تمثل المعرفة الشاملة في الجانب العام والجانب الخاص، قام أفراد بجهودهم الذاتية بتقديمها للناس، من خلال صبر ودأب وإخلاص، وهي صفات تحض عليها قيم الإسلام ومفاهيم الحضارة الإسلامية.

لقد عرفت ثقافتنا الإسلامية الموسوعات المتنوعة، واشتهر بين الناس حتى يومنا: الفهرست لابن النديم، وإحصاء العلوم للفارابي، ومفاتيح العلوم للخوارزمي، ومفاتيح السعادة لطاش كبري زاده، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (محمد علي بن علي).

بقلم د. حلمي القاعود
مصر

ويعرف الناس موسوعات اللغة أمثال: لسان العرب لابن منظور، والنصوص لابن سيده، وموسوعات التاريخ أمثال: وفيات الأعيان لابن خلكان، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، والوافي للصفدي..

وفي العصر الحديث، ومع بزوغ فجر النهضة، أخذ عدد من الأعلام في مصر والشام، يعملون بهمة وعزم، لتقديم موسوعات ومعاجم، عامة ومتخصصة، فرأينا البستاني ومحمد فريد وجدي، يرودان هذا المجال،وتتوالى من بعدهما جهود أخرى امتدت الآن لتشمل معظم البلاد العربية تقوم على عاتق أفراد، وبرعاية حكومات، وتسعى إلى رصد أدق التخصصات لخدمة طلاب العلم والمعرفة، ولا تكتفي بالتأليف فقط، بل تقوم بترجمة الموسوعات العالمية أو الأجنبية عموماً، ويعرف القراء خبر « دائرة المعارف الإسلامية» التي ترجمتها (أو ترجم معظمها) لجنة من كبار الأدباء والعلماء في النصف الأول من القرن العشرين، وعلقوا عليها، استدراكاً وتصحيحاً، فقد أنشأها عدد من المستشرقين والأجانب، وشاب جهدهم بعض التقصير، لقصور فهمهم للإسلام أو للغة العربية ومعطياتها ،وكانت على كل حال، مرجعاً من مراجع الباحثين يستفيدون منه، وإن كانت قد حركت عزيمة بعض الباحثين والعلماء، لإصدار موسوعات خالية من سلبياتها، كما نرى الآن في العمل الضخم الذي تقوم به الدكتورة «فاطمة محجوب» مع فريق بحث ممتاز، ويصدر تحت عنوان «الموسوعة الذهبية» عن دار الغد العربي، وصدر منه حتى الآن أكثر من أربعين مجلداً ضخماً.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: أين دور «أنور الجندي في هذا المجال؟.

الحقيقة أن «أنور الجندي» عايش سلبيات الموسوعات المترجمة والمؤلفة حديثاً، كما رأى الخلل الذي يصحب المعلومات والمعارف، وخاصة حين يتم صبغها بصبغة ثقافية لا تتفق مع قيم الإسلام أو مفاهيمه الأصيلة أوتصوراته الصحيحة، ومن ثم، فإن جهده كان يتجه إلى التصحيح وتقديم المعلومة السليمة. إن المصطلحات المحدثة المتصلة بمفاهيم القيم والمعارف والعلوم والفلسفات، وما أطلق منها في الغرب، ثم ترجم إلى اللغة العربية دون أن يتصل بمدلولات الفكر الإسلامي وظروفه ومصادره، هو ما يعنى «أنور الجندي» وما يشغله، ولذا فقد رأى أن كلمات كثيرة لها ترجمات عربية دخلت ساحة الفكر الإسلامي دون أن يكون هناك ما يكشف عن ظروفها وارتباطاتها في بيئاتها أو التحديات التي نشأت فيها.. ثم إن هنالك محاولات ماكرة سعت لإحلال

هذه الكلمات أو المصطلحات – بمعنى أدق – محل كلمات عربية معروفة، أفضل تعبيراً وأدق دلالة، بوصف ذلك وسيلة جيدة من وسائل «التغريب»، نظراً للاختلاف الواضح البين بين الكلمة المعربة والكلمة العربية.

يضرب «أنور الجندي» أمثلة على ذلك ويتساءل:

«فهل يمكن أن تؤدي كلمة «وليجون» الغربية معنى كلمة «دين» في اللغة العربية؟ وهل تؤدي كلمة «ديمقراطية» معنى كلمة «شورى» العربية؟ وهل تؤدي كلمة «اشتراكية» معنى كلمة «عدالة اجتماعية» العربية؟ وهل تؤدي كلمة «قومية» معنى كلمة «عروبة»؟

في الواقع أن هناك فوارق عديدة بين مدلول هذه الكلمات، وفي عشرات أخرى من المصطلحات التي وضعت في اللغات الأوربية سواء في مجال السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو الدين والتي ترجمت، ثم جرت المحاولة بعد الترجمة لوضعها بديلاً للكلمة العربية التي تحمل نفس المعنى ولا تؤديه.

ذلك لأن الكلمات التي تتخذ كمصطلحات إنما تحمل وضعية خاصة ترتبط بالعصر والنشأة والظروف والتحديات ونمثلها، وهذا ما لا يمكن أن يتوفر لها بالترجمة التي تواجه عصراً وبيئة وعقائد تختلف وتتباين» (مقدمة «معلمة الإسلام» – طبعة خاصة محدودة).

إن الكلمات تتغير دلالاتها مع الزمن وتتطور بالاستعمال في لغتها الأصلية وبيئتها الأولى، وتكون الفجوة أكبر حين تنتقل الكلمات بالترجمة إلى لغة أخرى.

أما القيم البشرية – كما يرى أنور الجندي – وتكاد تكون واحدة، ولكن الخلاف

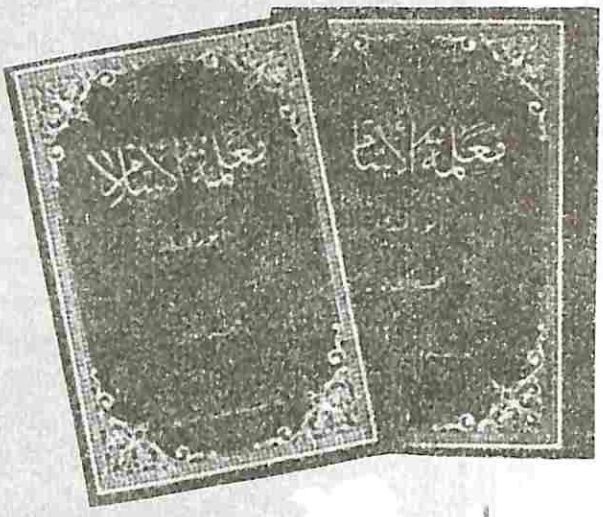

بين الأمم والثقافات يتمثل في أمرين:

*أولاً: في ترتيب هذه القيم وجعل أولويات معينة لبعضها دون بعضها الآخر.

*وثانياً: في تفسير هذه القيم وتصورها، وذلك كله يرجع أصلاً إلى ذاتية الأمم من خلال مفهومها الخاص للثقافة والعقيدة والتاريخ.

ولا ريب أن للمسلمين فكراً متميزاً يستمد جذوره وأسسه من القرآن الكريم وتتمثل فيه ذاتية المسلم الخاصة التي تختلف عن ذاتية الفرد في الأمم الأخرى في المقدرات والقيم والمقومات.

ويؤسس «أنور الجندي» على ذلك ضرورة المراجعة للمصطلحات المترجمة المطروحة في أفق الفكر الإسلامي واستقصائها والكشف عن حقيقتها، وبيان موقف الإسلام منها، حتى لا تختلط في أذهان المثقفين أو يظن أن هناك تشابهاً مايمكن أن يسمح بإذابة الفوارق بين الفكر الإسلامي الرباني المصدر، والفكر البشري الذي يمثله الفكر الغربي في ألوانه المختلفة.

الحقيقة الأساسية التي يجب أن تكون نصب أعين كل باحث مسلم أو مثقف مسلم، إنما تتمثل في التفرقة الواضحة بين مفاهيم القيم الإسلامية وغيرها، الأمر الذي لا مفر منه في هذا العصر حتى يسأل المسلم نفسه دوماً وإزاء كل أمر:

ما هو موقف الإسلام منه؟

وإذا كان هذا السؤال يجب أن يفرض نفسه على كل قلم مسلم – كما يرى أنور الجندي – فإن مسوغات صياغة موسوعات أو معاجم وفقاً للمفاهيم الإسلامية الصحيحة يمكن أن توضع على النحو التالي:

– إعادة النظر بالنقد والمراجعة لمختلف المصطلحات الجديدة في مجالات النفس والأخلاق والتربية بوصفها علوماً إنسانية اجتماعية، وينبغي أن تكون نظرة الإسلام ومفاهيمه واضحة وصريحة في مناهجها وفرضياتها ونتائجها.

– إلقاء الضوء الكاشف من خلال الأعمال الموسوعية والمعجمية، الذي يمنع السقوط في هوة التبعية أو الاستسلام أوالتقليد أو التردي في الهاوية.. ولا يتم ذلك إلا بكشف الزيف ودحض الشبهات في إطار متكامل جامع ميسر.

– فضح أخطار الفكر التلمودي الصهيوني الذي يتغلغل في مفاهيم العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية، ويسيطر على علوم النفس والاجتماع والأخلاق

والتربية، ولا ريب أن «بروتوكولات حكماء صهيون» ترمي إلى احتواء العالم المعاصر كله بالسيطرة على الثقافات والعقائد والنظم السياسية، وهو ما نراه جلياً في الفكر الغربي المعاصر، حيث صارت المادة هي أساس الفلسفات القائمة بترويجها للإلحاد والفساد الخلقي.

– إن تقديم «الإسلامية» بديلاً عن المناهج المادية الغربية التي فسدت وتعفنت صار ضرورة ملحة، وقبل ذلك فإن تعريف المسلمين بالإسلام من أوجب الضرورات.

وإذا كانت هذه مسوغات إصدار موسوعات أو معاجم إسلامية معاصرة، فإن جهود «أنور الجندي» في هذا المجال، كانت تطبيقاً أو صدى لها، وقد قدم للقراء مجموعة من الموسوعات أو المعاجم التي اختار لها أسماء مميزة، نشير إلى بعضها الذي بين أيدينا (وكلها بدون تاريخ):

١– معلمة الإسلام.

٢– في دائرة الضوء.

٣– أحاديث إلى الشباب المسلم.

أولاً: معلمة الإسلام

آثر «أنور الجندي» تسمية معلمة، على تسمية موسوعة أو معجم أو دائرة معارف، لأنها أوفى بالغرض الذي وضعت من أجله، وأكثر إحاطة وشمولاً، ثم إنها – في مفهومه – موسوعة قاصرة على المصطلحات في الفكر والعقيدة، وهو ما يميزها عن غيرها من المعاجم..إنه بذلك يكون أول من استخدم لفظة «معلمة» في هذا المجال.وهي من الصيغ التي تدل على المكان الذي يكثر فيه الشيء، والمكان قد يكون وعاء أو أداة.. ووعاء العلم الكتاب.

وقد رأى أن كلمة «معلمة» أفضل من كلمة «انسكلوبيديا» التي تعنى دائرة معارف، أو كتاب موسوعات، وهي لا تفيد ما تفيده كلمة «معلمة».

ومعلمة الإسلام التي ألفها «أنور الجندي» تتكون من تسع وتسعين مادة، تشتمل على ما يتعلق بالإسلام عقيدة وعملاً وسلوكاً، ويخصص لكل مادة بضع صفحات تركز على أهم ما يبرزها ويوضحها، فهو مثلاً يتحدث عن مواد: الإسلام – التوحيد – الإيمان – النبوة – القرآن – الدين – الإنسان (روح وجسد،

إرادة وحرية، العقل والقلب، الحياة والموت) – النفس – علم النفس (الفرويدية) – الجنس – الوجودية – الأخلاق – الشباب – المرأة – التربية – التعليم – الثقافة – الأدب – اللغة، العلم (في الإسلام) – العلم (في الغرب) – النظرية المادية – نظرية التطور – .. إلخ.

في كل مادة من مواد المعلمة يحشد المفاهيم الإسلامية، ويصحح المفاهيم الخاطئة، ويقدم الأدلة القرآنية والعقلية، ومقولات العلماء والباحثين.. إن المعلمة حين تطبع طبعة جديدة ستقع فيما يقرب من خمسمئة وألف صفحة من القطع المعتاد، مما يعني أن بها مادة مهمة وأساسية يمكن أن تخدم الدعوة الإسلامية بتقديم الإسلام إلى المسلمين، وإلى غيرهم، بالإضافة إلى رد الشبهات ودحض الأضاليل.. ولنأخذ مثالاً على العناصر التي تحتويها المادة الأولى في «المعلمة» وهي مادة «الإسلام».

تعريفه، مقوماته، خصائصه، إشارة إلى الشرائع السابقة وعلاقاتها به، عالميته، موقفه من الحياة، التوحيد، العلم والأخوة الإنسانية، العلاقة بين الحاكم والمحكوم، موقفه من الأمور الدنيوية، أهمية الفطرة، عالم الغيب وعالم الشهادة، حقوق المرأة، الأمومة والأنوثة والطفولة، تكريم الإنسان بصفة عامة، الاعتراف بميول الإنسان وعواطفه ومشاعره في إطار الشرع والضوابط، قضية المعرفة وجناحاها (العقل والنقل)، المال وسيلة لا غاية، الحرب في الإسلام (جهاد مقدس)، نظرة الإسلام إلى أتباع الأديان الأخرى، التقدم بمفهومه الجامع المانع، الأخلاق في مفهوم الإسلام، نظام المجتمع، مواجهة الغزو الفكري، مراجعة المصطلحات.. إلخ.

في كل عنصر من العناصر السابقة يضيء الكاتب جانباً من جوانب الإسلام، ويكشف عن ملمح من ملامحه بما يعطي صورة متكاملة عن مادة «الإسلام» فيها الوفاء بالغرض المطلوب، فضلاً عن رد بعض الشبهات التي يطلقها بعض الكتاب جهلاً أو تضليلاً حول الإسلام ومضمونه.

ثانياً: في دائرة الضوء

ويلاحظ من العنوان أن المادة موضوع هذه الموسوعة تحتاج إلى كشف وتجلية وتوضيح، لما أثير حولها من شبهات، أو لعدم فهمها فهماً صحيحاً نتيجة قصور

أو خلط أو تشويش، لذا فإنه يعتمد منهج «المعلمة»، ويعالج المادة، التي هي كما لاحظنا «قضية» مطروحة للنقاش أو غير مطروحة «بالتجاهل أو التعتيم» برؤية إسلامية واضحة تبرز جوانبها، وتجلي عناصرها.

ومن مواد دائرة الضوء أوالقضايا التي عالجها أنور الجندي:

وحدة الفكر الإسلامي: مقدمة للوحدة الإسلامية - الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون (يقصد قضية التعليم) - في سبيل إعادة كتابة تاريخ الإسلام - في مواجهة الفراغ الفكري والنفسي لدى الشباب - الشبهات المطروحة في أفق الفكر الإسلامي - التغريب أخطر التحديات في وجه الإسلام - تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام الحديث: السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية - على الفكر الإسلامي أن يتحرر من سارتر وفرويد ودوركايم - أخطاء الفلسفة المادية.

وإذا أخذنا على سبيل المثال محتويات إحدى المواد التي اشتملت عليها دائرة الضوء، ولتكن المادة الأولى: وحدة الفكر الإسلامي مقدمة للوحدة الإسلامية الكبرى، سنجد أن «أنور الجندي» يشير أولاً إلى مرحلة العنف والقسوة التي تواجهها الأمة من خلال محاولات الاحتواء والتبعية التي يقوم بها الاستعمار، وتمكن الصهيونية العالمية من إقامة رأس جسر في فلسطين، ويتحدث عن المقاومة الفكرية الباسلة التي قادها نخبة من المفكرين الأبرار ما زالت صاعدة في مهمتها النبيلة، ثم ينتقل إلى التركيز ببعض أحداث التاريخ الإسلامي المهمة في مواجهة الصليبيين، ومتاعب الدولة العثمانية، وحركة اليقظة الإسلامية ودورها في تحرير العقيدة أو استعادة قدرة الإنسان المسلم على المقاومة، ثم يتناول المخطط التلمودي وتأثيره على الأمة الإسلامية وضرورة كشفه والتصدي له، ومثله الدور الذي تلعبه مدارس الإرساليات التبشيرية والاستشراق في تشويه الإسلام والتنفير منه مع الدعوة إلى التغريب.. ويؤسس على ذلك ضرورة النهوض بالعقيدة الإسلامية واستلهام التاريخ الإسلامي دون تشويه، ثم الخروج من مرحلة التبعية إلى مرحلة الترشيد بإذن الله.

وهذه الموسوعة (في دائرة الضوء) يمكن أن تظهر فيما يقرب من ثمانمئة صفحة بالقطع المعتاد إذا أعيد طبعها طباعة جديدة، وفيها على كل حال، ذخيرة حية من المعلومات والوثائق التي تكشف عن أمور غاية في الأهمية تتصل بواقعنا العقدي والفكري والتاريخي والثقافي بوجه عام.

ثالثاً: أحاديث إلى الشباب المسلم

على منهج المعلمة ذاته، ودائرة الضوء، تسير موسوعة أحاديث إلى الشباب المسلم، تقدم لهم الإسلام، وقضاياه المعاصرة بأسلوب بسيط وسهل، مع دعوة إلى اليقظة والوعي في مواجهة الأخطار الراهنة والمتربصة بالإسلام والمسلمين. إنها أحاديث بنائية - إن صح التعبير - تهدف إلى بناء الشباب المسلم وصياغته صياغة إسلامية حقيقية تظهره على جوهر دينه وخصائصه ومميزاته.

وللأسف الشديد، فلم أحتفظ في مكتبتي بمواد كثيرة من هذه الموسوعة، ولكننا يمكن أن نتعرف على طابعها التثقيفي إذا قرأنا بعض العناوين التالية:

الإسلام في أربعة عشر قرناً - نحن وحضارة الغرب - خصائص الأدب العربي - يوم من حياة الرسول ﷺ.

ويمكن أن نشير إلى المادة الأولى في هذه الموسوعة بوصفها مثالاً جرى عليه «أنور الجندي» في بقية المواد، أعني الإسلام في أربعة عشر قرناً، وقد كتبها بمناسبة مرور أربعة عشر قرناً على بزوغ الإسلام في العالم، ويؤكد على أنه منذ بداية الإسلام لم يقض أمر من أمور هذا الكوكب - يقصد الأرض - دون أن يكون الإسلام والعالم الإسلامي من العوامل الرئيسية فيه، ومن ذلك قيام الدول والثورات والحروب، ويتحدث عن تأثير الإسلام على الحضارات السابقة عليه وتأثيره بعد ذلك على أحداث كثيرة حتى وقتنا الراهن.

يتناول أيضاً رؤية جديدة للإسلام مع يقظة الفكر العربي المعاصر، ثم يتناول مواقف حاسمة من تاريخ الإسلام، ويتكلم عن إطار لتاريخ الإسلام يرتكز على نظرة كلية شاملة لتحرك الأحداث في العالم الإسلامي عبر القرون الأربعة عشر.

وهكذا نجد أن كل موسوعة - حتى وإن تشابهت مع بعضها في بعض العناصر - تسعى سعياً حثيثاً إلى تقديم المعلومة والمعرفة في إطار الرؤية الإسلامية والمنهج الإسلامي، وترد الشبهات والأضاليل التي حاول الغرب إلصاقها بالإسلام وتاريخه وشعوبه، وتضيء جوانب عديدة للأجيال الجديدة التي حرمت من التعرف على الإسلام قصداً، أو تقصيراً في هذا المكان أو ذاك.. وكل ذلك بجهد رجل واحد، يعد أمة من الرجال، اسمه «أنور الجندي» رحمه الله.